الجارم الشاعر

للاستاذ عبد الجواد سليمان

(الوفاء فى شعره)

فى شعر الجارم ركن من الأركان العامرة يكاد يجزم كل من قرأ شعره فى أجزاء ديوانه الأربعة ، وتتبعه فى كل ما أذاعه أو نشرته له الصحف فى أواخر أيامه أنه أكثر الشعراء المحدثين نظما فى هذا الميدان ، ذلكم هو (شعر الوفاء) والوفاء صفة إنسانية تجيش بها العاطفة اليقظة التى تهيم بحب من أحبت . وقد كان مظهر هذه الصفة فى شعر الجارم وفاؤه لمليكه ، والوفاء للملوك ولاء ، وولاء شاعرنا هو ذوب نفسه المؤمنة وعصارة وجدانه الصادق ، سجله فى عشرات القصائد ومئات الأبيات فى شتى المناسبات الملكية السعيدة . ثم وفاؤه لوطنه الصغير مصر ووطنه الأكبر الشرق ، ثم وفاؤه لأصدقائه من شعراء وعلماء وعظماء وأساتذة يحييهم عن حب وتقدير أحياء ، ويظل حافظاً لودهم باقياً على عهدهم فيرثيهم بعد مماتهم رثاء يترجم عما ينطوى عليه قلبه لهم من حب ومودة وإخلاص ؛ هذا إلى وفائه لمعاهده التى ورد فيها موارد الثقافة والمعارف يشيد بفضلها وينوه بذكرها ولا يتنكر لها ؛ للغته ينافح عنها ولدينه يذود عنه .

وسنقصر هذه الكلمة على النوع الأول من الوفاء (والوفاء بمعنى الولاء) الذى آثر به الجارم الجالسين على عرش مصر فأدى لهم ديناً فى جيده من شعر يبقى على الدهر خالداً توقعه قيثارة الولاء وتهتف به ألحان الخلود .

لم تفت الجارم مناسبة ملكية أو عيد من الأعياد (المصرية) إلا قيد لها أوابد فكره وتغنى بها فى بيان عذب وسحر مبين . وكيف يفوت الجارم شىء من ذلك وقد غمره مليكه بفيض من إحسانه فقربه منه ، وأصغى إلى شعره ينشده بين يديه ، وأغدق عليه فضله وأسبغ عليه إنعامه ؟

ففى قصيدة له سماها (الناحية الكبرى) قالها بمناسبة تولى الفاروق سلطته الدستورية يصف الجـــارم هـذا اليوم التاريخى العظيم ، فيجعله متوجاً على الأيام حتى إن الأيام التى سبقته فى الوجود لتأسف على تقدمها عليه ، ويود كل يوم منها لو حالفها حسن الطالع فتأخر ظهوره قليلا ليحظى بالشرف الذى ناله هذا اليوم ؛ ثم تغبطه الأيام بعده فيتمنى كل منها لو سعد فسبق فى صحيفة المقدور ليدرك المجد الذى أدركه يوم الفاروق وأنى لكل منهما أن يبلغ ما أراد أو ينال ما تمنى ؟

هذه العاطفة الحياشة بالولاء يخطها الجارم شعراً فيقول : —

يوم غدا بين الدهور مملكا ... يوما إليـــه مهابة ويشار
الأمس يجزع أن تقدم خطوة ... وغداً أطار صوابه استئخار
يوم جثا التاريخ فيه مدونا ... لله ما قد ضمت الأسفار

ثم يلتفت إلى المليك المعظم فيقول : —

يكفيه أن ينمى لأكرم سدة ... سعدت بها الأيام والأمصار
بيت له عنت الوجوه خواشعا ... كالبيت يمسح ركنه ويزار

وإن الصورة الحية الناطقة التى صور فيها التاريخ جاثياً على ركبتيه خاضعاً ذليلاً ليدون محامد هذا اليوم ، ويتلو صحفاً مطهرة من أسفاره لتدل على الطبع الشعرى الأصيل والخيال الواسع فى الجارم الذى يرهف سمعه وحسه للحوادث فيسجلها ويعبر عنها من قلبه فلا يبدو فيها أثر الصنعة والتكلف .

وإن التورية التى تضمنتها كلمة (البيت) فى البيت الأخير لمن التوريات الطريفة التى لا تنقاد إلا لشاعر ملك ناصية البلاغة وقبض على أزمة التصرف فى فنون القول ليختار منها ما يهز القلوب ويبهر البلغاء ، فقد لاءم فيها الجارم بين خيال شعرى جميل ونفحة روحية استقاها من نبع ثقافته الدينية ، فالحج ركن من أركان الإسلام ، والحجاج فى حجهم يزورون الكعبة وهى البيت الحرام قبلة المسلمين ثم يطوفون حولها ويتمسحون ببعض أركانها — خاشعين لله قد عنت وجوههم ؛ متجردين إلا من لباس التقوى .

والشعراء يدونون التاريخ بلغة الشعر لأنهم لا يقوون على سرد الحوادث جافة مجردة بل يلقونها فى أفواف من تلك النفحات القدسية التى آثرهم الله بها ، ويرسلونها أنفاساً شعرية تلين ما جف من حوادث التاريخ .

والجارم فى أبياته الآتية يسير على هذا السنن الشعرى ، فهو يلم فيها بما كانت عليه حال مصر قبل محمد على جد الفاروق ، من

ضعف وتدهور ، وجهل وفوضى ، ثم كيف انتعشت وتقدمت عند ما تولى أمرها جد الأسرة العلوية ، فضم الصفوف ووحد القوى ، فبعثها من مرقدها فهبت متحفزة متوثبة تخطب المجد وتنشد الحياة الحرة الكريمة ، ثم يذيل هذه الأبيات ببيت حكمى ضمنه مقابلة طريفة حيث يقول : —

الظلم يخفق للزوال سراجه والعدل منـدك الذرا منهار
والناس فى حلك الظلام يسوقهم نحو الفناء تخبط وعثار
فبدا (محمد كم) فهب صريعهم حيا كذلك البعث والإنشار
والتفت الرايات حول لوائه ودعا الفتاة إلى المسير فساروا
وأعاد مجـــد الأولين بعزمة إرادهـا لله والإصدار
إن النفوس تضيق وهى صغيرة ويضيق عنها الكون وهى كبار

ووفاء الجارم الشاعر من نوع الوفاء الراكز فى النفس الممزوج بغرائزها الذى لا يفارقها ولا يتخلى عنها فى ساعة من ساعاتها . وهل يخرج الإنسان على طبعه الذى طبع عليه أو يحيد عن فطرته التى فطره الله عليها ؟ إنه لو حاول ذلك مرة لخانته طبيعته فجاء شاذاً مقلداً، يفضحه تقليده ويدل عليه شذوذه ولا يخفى على الناس تكلفه . ووفاؤه للمليك يلهمه فى عيد ميلاده أبياتاً جديرة أن تسمى بحق (شعر الولاء) عند ما يؤرخ لهذا اللون من الشعر فى أبواب الأدب العربى المعاصر .

ففيها يصور (الفاروق) أستاذاً يلقن دروس الوفاء ، وقد اتخذ النيل منه مجلس التلميذ ؛ فتعلم من المليك الوفى لبلاده الوفاء بمائه ، والنيل لذلك يفى على طول طريقه حتى أصبح مضرب المثل فى الوفاء بمائه وخيراته كل عام، وماؤه بالفاروق أعذب مورداً من ماء الحياة ، بل إن ماء الحياة أثارة من مائه : —

النيل بالفاروق أعظم مورداً ماء الحياة ثمالة من مائه
علمته صـدق الوفاء فأصبحت تتحدث الدنيا بصـدق وفائه
ومنحته خلق العطاء فتردت صداحة الوادى بفضل عطائه

يصف الجارم فى بيتين بعد ذلك مليكه بأنه رجل الدين والدنيا فيأتيان بنجاة من الزلل إذ يقول : —

الدين والأخلاق ملء جنانه وجلالة الأملاك ملء ردائه
يهتز فى برد الشباب كأنه سيف يدل بمائه ومضائه

حالف الجارم التوفيق فى هذين البيتين كشاعر يمدح ملكاً ؛ فلم يزل كما زل شاعر المأمون من قبل عند ما امتدحه بقصيدة قال فيها :

تشاغل الناس بالدنيا وزبرجها وأنت بالدين عن دنياك مشغول

حتى إن المأمون لم يرتض منه لنفسه هذا المديح حيث أظهره فيه مظهر رجل من رجال الدين الزاهدين الذين نسوا حظهم من الدنيا فقال له : ويحك ، هلا قلت كما قال جرير فى عمر بن عبد العزيز : —

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ثم هو يؤكد هذا المعنى فى مناسبة عيد الجلوس، فاخراً بدولة الفاروق القوية التى أصبحت بفضل ملكها وتمسكه بأهداب دينه موئل الاسلام وملاذه فيقول : —

ملك من النور قد شادت دعائمه كأنما شيد من هالات أقمار
ودولة ركز الإسلام رايته فيها على طود تاريخ وآثار

وفى مناسبة تهنئته بعيد الفطر فيقول : —

إذا اصطنع الله أمراً جل سعيه وعمت أياديه وطابت نقائبه
به ازداد دين الله عزاً ورددت منـــابره آلاءه ومحاربه
وقور بدرس الدين يطرق خاشعاً من النسك يرجو ربه ويراقبه
بجانبه الشعب الوفى يحوطه وترحمـــه أعضاده ومناكبه
تحلى به عصر الرشيد وعزه وسالف عهد الراشدين وذاهبه

ثم يوفق إلى هذا المعنى الجليل فى مناسبة أخرى منشداً فى الفاروق : —

قدوة للشباب قد عرف الجيـ ـل طريق الحياة من خطواته
مرة سامقاً على صهوة الخيـ ـل وأخرى مطامناً فى صلاته

وفى غيرها فى سهولة وإشراق قائلا فى مملكة الفاروق :

شهدت بعطلك الحيا ة تفيض بالنعم الزواخر
ورأت مخايل دولة فوق النجوم لهـا معابر
وتطلــع المحراب فى جذل وأشرقت المنابر
واستبشر الدين الحنيـ ـف بخير من يحمى الشعائر

ومدينة (رشيد) بلد الجارم قد شرفت بزيارة ملكية سعيدة ؛ فلم تنسه غمرة الفرح التى عمت بلده بشرف الزيارة حق الوفاء للمليك بل يسجل ولاءه، فى هذه المناسبة فيخلع على رشيد ثوباً قشيباً تزهو به على الأيام بين البلدان . فبزيارة الملك لرشيد أصبحت

طريقها تبراً وكانت قبل تراباً . —

جزت الطريق فصارت تبرا وكانت تراباً

ونخيلها اهتز طرباً تشوقا إلى طلعة المليك :

والنخل ماست ومالت تشوقاً واجتذابا

قد هزها الشوق حتى كادت تجارى الركابا

وثغرها قد تفتحت أساريره، وبسم عن ثغور — فواحة بالعطر — بسمة حبيب أذهلت حبيبه عن لومه وعتابه : —

والزهر ينصح عطراً بين الربا وملابا

له ابتسام حبيب أنسى المحب العتابا

وطبيعة رشيد السحرية شاركت أهل رشيد الحفاوة بالملك ، فتطامنت هضابها وحنت رقابها وكانت قبل الزيارة عالية شامخة ، والبحر لا ينتظر حتى يرده الفاروق بل هو يسعى إلى بحر مثله ليستقبله لأنه أكثر منه عطاء وأسخى جناباً والنيل قد سار فخوراً مدلا بسفينة الفاروق فوق متنه . —

تطامنت هضبات ماذا أصاب الهضابا

كانت تسامى الثريا واليوم تحنى الرقابا

والبحر يدنو ويعلو تطلعاً وارتقابا

لما تلقاك قلنا لاقى العباب العبابا

فاروق أعظم نفعاً منه وأسخى جنابا

يزجى السحاب ثقالا وأنت تزجى الرغابا

والنيل ينساب تيهاً بين المروج انسيابا

ثم يصور رشيد وقد خرجت شيباً وشباناً تجتلى طلعة المليك ، ورنت مآذنها وقبابها تتمنى أن تخوض مياه النيل للقيا المليك لو قدر لها ذلك : —

لولا السفين لهامت (رشيد) تعدو وثابا

وأقبلت وهى ترنو مآذناً وقبابا

تود خوضا إليه لو استطاعت ذهابا

ثم لا يترك هذه الظواهر من غير أن يعلل لها تعليلا نفسياً يظهر فيه أثر ثقافته ومعرفته بالنفوس وطبها فيقول : —

والشوق إن غال نفساً لا تستطيع غلابا

وولاء الجارم لمليكه المحبوب لم ينسه حتى فى أشد حالات سروره وفاءه لأبيه الملك الراحل ، وذلك شأن النفوس الكريمة ذات البداهة الثاقبة ، وإن من وفى للغائبين كان وفاؤه للحاضرين أولى وأجدر ؛ فالمغفور له الملك فؤاد أعلى من قدره واستمع إلى شعره ، فتراه هنا يستطرد إلى ذلك فى إلماعة لبقة تنبعث من منابع نفسه قائلا : —

أبوك راش جناحى حتى لمست السحابا

وكان يصغى لشعرى وكان شعرى عجابا

وفى قوله (وكان شعرى عجاباً) إشارة من الإشارات الدقيقة الخفية إلى ما كان عليه الملك فؤاد من تذوق للشعر ، وهى إشارة تنفى الجارم من مؤاخذته على الفخر فى مقام مدح الملوك ، ولعل تعبيره هنا (بكان) يشفع له ويجعل السامعين يتحسرون معه على أيام شبابه الخوالى .

أما وفاء النفس الطاهرة ، وولاء القلب الواله الذى لا ينسى الجميل والاحسان ؛ وأما دموع الوفاء السخينة وزفراته الحارة ، وأما ولاء الرعية الملوك فاستمع إلى الجارم يتلوه فى رثاء الملك فؤاد لتعرف كيف يكون حزن الأوفياء ورزؤهم فيمن وفوا لهم : —

حملوه وإنما حملوا آ مال شعب بزهرها الغصن تندى

حملوا حامى الحقيقة والدين كما تحمل اللائك عهدا

ما على الدهر مرة لو توانى ؟ أو على الدهر ساعة لو تهدا

قد نعينا فرداً به كان عصراً وفقدنا عصراً به كان فرداً

إنما الناس بالملوك وأعلى الـ ملك شأواً ما كان حباً وودا

يا مليكى والحب يطحن نفسى كلما قلت : خف قال : سأبدا

أين تلك الهبات للمرتجى ؟ وجميل العزاء بالحر أجدى

نحن لله راجعون وكل بالغ فى عجالة العمر حدا

غير أن الفتى يغالبه الدمـ ـع فلا يستطيع للدمع صدا

ثم يعلل نفسه ، ويخفف من حزنه على الملك الراحل ، بذكر الفاروق — وفاء له — فى مقام الولاء لأبيه ، فهو أمل الشعب المرجى ، قد قرأ خطه فى ملامحه وعلق آماله على مليكه وسلطانه :

أمل الشعب فى خليفتك الفا روق أحيا آماله وأجدا

قرأ الشعب فى ملامحه النـ ـر سطور المنى وأبصر جدا

ورأى فيه نبعة المجد والنبـ ـل أبا مفرد الجلال وجدا

لم يجد للعلا سواه مثيلا وليدر السماء إلا ندا

لقد صدر الجارم فى قصائد ولائه عن طبعه الشاعرى ، فلم